آثار عثمانية

« كتاب من صديق الى صديق في هذه الديار ، يصف له فيه حال بعض الاقطار »

سيدي الاخ اذا تذكرت مصر فلا أذكرها الا بك ، واذا جنحت اليها فلا أجنح الا اليك ، قلبي يهواك ولساني يذكرك لأنك مطلب الروح ومبتغى النفس . فان كرمك وحلمك وفضلك وعلمك ونبلك وفخرك — تلك نياشين المجد — جعلت لك سناء يخطف أبصار عشاق الخلال الكاملة وان لم يروك فبالك مولاي وأناذاك الذي ملكك قلبه على بينة بعد درس جدك ونشاطك وعزمك وحزمك وعفتك ونزاهتك وغيرتك على دينك وشدتك في الحق ونزوعك الى نصرته — خلال تفوق عدد رمل الدهناء ، وتربو على نجوم السماء ، فكيف أتبين منك هذه الخلال العظيمة واستطيع مع البعد سلوا

هذا وأني بين قوم تتعالى نفوسهم عن الحق ، وتجافى جنوبهم عن مضاجع الصدق ، لاهم ماتوا فاستراحوا ، ولاهم انتبهوا فاراحوا ، غشيهم طائف من الجهل جعلهم يتخبطون في بعضهم بعض (١) كالذي يتخبطه الشيطان من المس حتى اضطررت ان أعتصم بحبل العزلة وانزوي في ركن بيتي على خلاف عادتي التي تعرفها . استغفر والله مخاطبة واحد من هؤلاء القوم لما هم عليه من الغباوة الزائدة والجهل المطبق والحمق الشديد والعياذ بالله تعالى

فلا بلاهة المصري ولا غباوة السوري ولا استبداد التركي ولا جهل الاعجمي (٢) ولا غطرسة الافغاني بأشد على نفوس العقلاء من تمخرق هؤلاء ... (٣) فان أولئك القوم مع ما هم عليه قد نجب فيهم أحرار أبرار يفرد واحدهم بأمة كاملة فحيا الله بلادا وسقيا لها ورعيا نجب أمثال عبده وعثمان (٤) والكواكبي ورفيق ورشيد وكمال ومدحت

---

(١) كان الصواب أن يقول : يتخبط بعضهم في بعض : (٢) يريد بالاعجمي العجمي وهو من جنسه العجم ويرادفهم الفرس وأما الأعجمي فهو نسبة من الى الاعجم وهو من لا يفصح في القول وان كان عربيا وينسب الى نفسه مبالغة . وظاهر ان هذه الاوصاف لا تنطبق كلها على الموصوفين بها (٣) ورد : تمخرق الرجل : أي مرد وكذب واختلف في أصالته في العربية ولم أجد تمخرق ولكنه مستعمل في الكلام العرفي الذي قلما تخلو منه الرسائل الشخصية الآن (٤) ظاهر انه يعني بعبده الاستاذ الامام واما عثمان فهو الدكتور عثمان بك غالب العالم الطبيعي المشهور . وقد فصل بين المضاف والمضاف اليه بالعطف على العامل في الثاني

وعالي وفؤاد والباب وقرة العين وجمال الدين وسحقاً لأمة .....(١)

مولاي: لا يستطيع القلم ان يصف لك ولو شيئاً قليلا مما رزئت به هذه البلاد من نكد الطالع وجهل بأمر وطيش حلم وافن رأي بهذه الورقة الصغيرة ولكن لا أظنه يخل عليك ببيان رؤس منها ومنها تعلم البقية

(لنا علماء) ولكنهم جاهلون متكبرون متغابنون متغابون وهم آلهتنا (يريد أنهم عبّدوا الناس باستعلائهم) حديثهم بطونهم وتدقيقاتهم ومباحثهم خاصة بعجائب الكائنات وكرامات القبور وعلمهم كعلم آلهة الاشوريين لا يزيد ولا ينقص ولا يتجدد ولا ينعدم وهو محصور في تصريف أكل يأكل أكلا !!! وفي إعراب هذه الجملة : ليت لي قنطاراً من الذهب فأحج به : وهو عندهم من تمني مالا طمع فيه أو مافيه عسر وفي اكتشاف متعلق الجار والمجرور في إعراب البسملة وفي فرض وجه للحكم في عدة زوج المسوخ هل تعتد عدة طلاق أو عدة وفاة وفي جواز تزوج الحي بالانسية والانسي بالجنية أو عدمه وفي اختراع نكت في التفسير في معنى تفاخر فرعون بجريان الانهار من تحته في حكاية القرآن فغاصت أفكارهم في النهر ولم يوقف لهم فيه على أثر ! !

اذا قلت لهم ان هذه أوهام في أوهام زجروا واستكبروا ، ومزقوا ثيابهم وطمروا.(٢) وصخبوا ولعبوا، وبكوا وانحبوا، وقالوا: هذا آخر الزمان: ووشوا عنك انك كافر، لا تؤمن باليوم الآخر، واستعانوا عليك بخلطاء العامة فيسكتونك أما طوعا واما كرها — طوعا اذا وثقت بعجزك عنهم وكرها اذا وثقوا بقدرتك عليهم فاستعملوا معك سلطة الحكومة(٣) التي لا يخل بها عليهم الدخلاء، وربما كان ذلك من مقتضى سياستهم لأنهم لا يودون أن يتبصر الناس ولا أن يرفعوا رؤسهم من شبكة الاستبداد . وهناك يحكم القضاء . ويجري البلاء ، وأين الصابرون الذين يوفون أجرهم بغير حساب ؟

(لنا حكام) ولكنهم أميون جهلاء متخاذلون ، إرادتهم شريعة قاهرة، وحكمهم سلطان نافذ، لا راد لقولهم، ولا مانع لحكمهم، فالحاكم منهم يجمع في شخصه ثلاث سلطات فهو مشرع منفذ مراقب كأنه المسيح عند النصارى يجمع في شخصه ثلاثة أقانيم . استغفر الله، من

---

(١) ذكرها حادثة رأينا السكوت عنها على فظاعتها إخفاء لتلك الأمة

(٢) لا أعرف هذه الكلمة الا في كلام العامة ومعناها انتفخوا (٣) كان ينبغي ان يقول فاستعانوا عليك بسلطة الحكومة

أين للمسيح المقهور أن ينال سلطة من السلطتين الاخيرتين ولو نالها لتمكن بها على الأقل من تخويف وطأة أكليروس اليهود . آه ! دعني أنفث الآهات حتى يفرغ الصدر فان الناس عندنا أرقاء ، وأسواق المحاكم اسواق الاسترقاق ، فلا قانون يزع ، ولا مسؤولية تردع حكامنا اما قضاة شرعيون وإما حكام سياسيون . فالقضاة الشرعيون يتولون الخطة بعد دراسة تلك الكتب القديمة التي أخفى عليها الذي أخفى على لبد فيعطي أحدهم راتبا قليلا فيديده بسائق الضرورة الى الرشوة ويستعمل الغبن في وظيفته ويجور ويعبد الدرهم والدينار لا يكتفي بأحدهما فلا يمر عليه زمن قليل حتى تتعدد مركباته بعدد أنواعها وتكثر قصوره بعدد مواقعها ويكثر خدمه وحشمه وعبيده وجواريه فلا الخديوي في مركبه ، ولا السلطان في موكبه ، بأعظم من قاض شرعي في بلادنا اذا تمشى في الاسواق أو دخل المحكمة . هذا والعامة والخاصة !!! يعتقدون أنهم سجادة الرسول وشرع المصطفى وأن ما يحكمون به في الارض يبرم في السماء واذا تظلم منهم مظلوم تقوم على رأسه القيامة وتأتي عليه الآخرة بعذابها . أولئك يشيعون أنه مارق من الدين لا يرضى بالشرع ولا يقبل حكم الله فيه فتكفره العامة وأنت أدرى بعاقبة هذا التكفير . على أن أهل الحل والعقد لا يجدونه نفعاً (١) ابتغاء مرضاة القضاة حتى يفشو الاختلال في الشريعة وتأنف الأمة من نفسها التقاضي لدى حكامها وتطلب استبدال الشريعة بالقانون (٢)

وليس رجال محاكمنا الأهلية بأقل خطرا على الأمة من قضاة الشريعة لأن مصدر تربيتهم واحدة .... فأعمالهم بالطبع تكون متقاربة متشابهة ولا يكون هناك فرق بينهم اللهم الا في الشكل فان القاضي الشرعي يتردى بأردية الإهمال والكسل ، والآخر يلبس لبوس النشاط والعمل ، وهذه غاية الفرق بينهم

أما الأحكام فالقاضي الشرعي يرجع فيها الى قواعد مشتتة متضاربة متخالفة يطبقها على القضايا بحسب ما يراه والقاضي الأهلي يعتمد فيها العادات والاصطلاحات التي جرت عليها السياسة السالفة بدون أن يكون لديه قانون يرجع اليه ، أو دستور يعول عليه ، فالطريقة الأولى كسيت صبغة الشرع اسما ، وهذه أعطيت لقب القانون رسما ، وفي الواقع لا شرع ولا قانون

(أحداثنا) هم سلم آمالنا وزهرة حياتنا وهم ينقسمون الى قسمين قسم عامة وهم لا كلام عليهم . وقسم خاصة وعددهم لا يزيد على ربع ! عشر ! تسع ! ثمن !

(١) المعروف « ما يجدي عنه » (٢) الصواب : استبدال القانون بالشريعة : اي جعل القانون بدلا منها وهذا مما يغلط فيه أكثر الكتاب تبعا للعوائد

سدس ! خمس ! عشار الأربعين من مجموع الأمة . وهم ينقسمون على أنفسهم الى قسمين — قسم تربى في المعهد الديني ... وأهل هذا القسم عبارة عن مختصر أزهري فهذا أيضاً لا كلام عليه . بقي الكلام على القسم الثاني وهو المراد من قولنا : أحداثنا هم مطمح آمالنا : فان هذا القسم مع قلة عدده وضعف مدده ليس بكامل التربية — هذا ان لم نقل انه لا تربية له — لأنه لم يتعلم شيئاً يرقي ذهنه عن أفراد قومه وغاية ما تلقنه من التربية قشور عارية عن اللب كدرس اللغة الأجنبية ومبادي تقويم البلدان وقواعد من الطبيعة وشيئاً من الحساب وكل ذلك لا يخرج عن درس الاشياء التي يتلقاها تلامذة المدارس الابتدائية في البلاد المتمدنة ولا حظ له من تعلم اللغة العربية مطلقاً حتى يعرف أن لديه لغة واقرة المواد كثيرة المصادر لديها من ألفاظ موسعات العلوم ما يكفي لتلقيح نهضة جديدة اذا أفرغت في قوالبها الحقائق المكتشفة ، والاختراعات المتجددة ، وعلى فرض وجود من درس هذه اللغة فان معلوماته لم تجاوز الحلقة الضيقة من التعليم الابتدائي فضلا عن التنوي والعالي فهل معرفته لها والحالة هذه تجدي نفعاً ؟

فهذا القسم الذي نظن فيه خيراً ونعلق عليه آمالا هو من العامة ولا شك (وأي نفع من العامة) وان ضرره أكبر من نفعه . ما ظنك بشاب دخل المدرسة ولا يدري أبواه ما سيتعلمه فيها وما سيكون من أمره فخرج منها متعوداً التأنق في الملبس والمأكل والمشرب وحب الرياضة مع العوانس والأبكار والجلوس في المحلات العمومية المقامرة والتسلي بالمشروبات الغولية وذلك بلاريب يستلزم كثرة الاموال واتساع نطاق المكاسب فان كان غنياً بعثر المال واستنزف الدينار استنزافا ، وان كان فقيراً أراق ماء الحياء وعبث بشرفه واستهان بناموسه وراء دريهمات يسدبها حاجات تربيته الجديدة الناقصة ؟ ومن يهن عليه العبث بشرف نفسه فشرف أمته لديه أهون ولا شك

هذا ولا يعزب عنك ان هذه المفقدات لجامعة الأمة والمحللات لعناصرها اذا كانت تدفعها يد ماهرة كيد الدخلاء فإنها تلم بها من طرق مجهولة كثيرة الشعاب وخطرها متوقع لا محالة . وهذه الأخطار الحافة بهؤلاء القوم المساكين ليست بنت زمن ولا منشأ سبب بل هي نتيجة اشتراك في ترتيب مقدماتها الأزمان والأسباب وصعب على عاجز مثلي أن يفهم هؤلاء القوم خطر موقفهم مادامت النفس غير قابلة والقلوب واهنة والبصائر مطموسة والحواس مغشوشة ونائرة الجهل قائمة . فعبثا أحاول إصلاح ما فسد من أخلاقهم وتجديد ما اخلولق من خلائقهم

مايجدي الإصلاح في قوم يعتقدون ان كل كلمة طيبة « مرتقة » ، وكل كلمة حادة زندقة ، وكل خلق جديد كفر ، وكل سعي الى الأمام ، خطوة من خطوات الشيطان ، ماذا يجدي الإصلاح في قوم ينتظرون خروج الدابة وقيام الدجال وظهور المهدي ونزول المسيح وطلوع الشمس من مغربها ونفخة إسرافيل وهذه اشراط الساعة والساعة لاتقوم الا على شرار الخلق ؟ ماذا يجدي الإصلاح في قوم خلقوا أشراراً فجاراً فساقاً ضلالاً كتب الله عليهم أن يكونوا عاثين في الارض مفسدين في السماء ؟ لإنشاء دولة وتكوين أمة أهون على نفوس العانين بالإصلاح من إصلاح أمة من الإسلام

عفواً يامولاي فاني قد أطلت عليك وحملتك هما على همك وزدتك غماً على غمك فلا تلمني فصدري ضاق على اتساعه وحمل هموماً ناءت أمة كاملة بحملها فكيف يستطيع حملها ذلك الشكل الصنوبري ؟ فسل لأخيك قرب المخرج من هذه الديار ... فان العيش على شوك السيال في منقطع العمران لأهون عليّ من معاشرة قومي ، ماتنكر شخص قومه كما تنكرتهم ومايئس ساع لرشد كما يئست من قوم لو حاولت ان أحصي لك العقلاء فيهم لما أكملت شتاتر اليد عدّاً ، أليس هذا من بواعث اليأس ، ودواعي البأس ، ؟ اه المراد منه

[المنار] هذا كتاب رجل كنا نصفه أيام كان بيننا بأكثر مما وصف به نفسه من سعة الصدر ، كنا نصفه بأنه لو تفطرت السموات وانشقت الأرض وخرّت الجبال هدّاً لما بالى ولا اهتمّ وها هو يشكو هذه الشكوى المرة من حال بلاده ، أليس في هذا عبر لمن يعقل ، أليس دالا على الفرق بين هذه البلاد وغيرها فأين شكر النعمة من التسخّم عليهم وأين الاعتبار بالبلاء ممن حل بهم ، وقد ختم الكتاب بأن الرأي الوحيد في تحريك أذهان قومه نشر المجلات والجرائد النافعة والكتب المفيدة نجح الله مقاصده وهيأ له من المصطفين الأخيار من يشد عضده

باب الأخبار والآراء

الدولة العلية والحرب

تستعد الدولة العلية للحرب لأن الفتنة في بلادها لا تزال تزداد وقد كنا في خوف عظيم من روسيا حتى أعطتنا الجوائب الأوربية بعض الاطمئنان من جهة